التعريف والنقد

كتاب التربيع والتدوير للجاحظ

عُني بنشره وتحقيقه : شارل بلات
أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس

يواظب المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق على نشر طائفة من كتبنا القديمة ، وآخر كتاب أخرجه لنا كتاب التربيع والتدوير للجاحظ .

وضع محقق هذا الكتاب مقدمة باللغة الفرنسية وذكر المصادر التي رجع اليها ويسيراً من تراجم الأعلام الذين جاء ذكرهم في الكتاب ونقل مفردات الكتاب الى اللغة الفرنسية .

أول مستشرقٍ عُني بدراسة كتاب التربيع والتدوير إنما هو المستشرق الهولندي « فلوتن » ، ثم ظهرت نسخ مخطوطة مختلفة ظفر بها الأستاذ « بلات » ، ويُستنتج من المقدمة أن كتاب التربيع والتدوير لا يخلو من بعض زيادات ليست للجاحظ اقتصر الناشر على الإشارة اليها دون حذفها .

عرّف « بلات » كتاب التربيع والتدوير فهو عبارة عن مسائل عويصة طرحها الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب ثم أجاب عنها الجاحظ نفسه بسخريته المعروفة ، والأستاذ « بلات » يشبّه الجاحظ في تصويره لأحمد بن عبد الوهاب بالكاتب الفرنسي المشهور : « لابرويير » .

وقد انتقل بعد هذا التعريف الى ذكر تأريخ تأليف الكتاب والى الكلام على أحمد بن عبد الوهاب والى الأسباب التي من أجلها ألّف الجاحظ كتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التربيع والتدوير والى تلخيص مكانة هذا الكتاب فالأستاذ « بلات » يرى أن صلة الكتاب بتأريخ الفكر العربي أشدّ من صلته بتأريخ الأدب .

نُقلت مفردات كتاب التربيع والتدوير الى اللغة الفرنسية ، ولقد مررت على هذه الترجمة عَرَضاً فوقعت عيني على ترجمة : مبغضة ، جاءت هذه اللفظة في المتن على هذا الشكل : والمزح حَجام والجدّ مبغضة والمزح محبّة ، فقال الأستاذ الناشر في ترجمة مبغضة : mépris وقال : هي ضد محبّة ، لستُ من أهل اللغة الفرنسية حتى أُجادل رجلاً من رجالها ولكن الذي أعرفه أن كلمة mépris تدل على الاحتقار والازدراء والاستخفاف أكثر من دلالتها على البغض .

على أن هذه الخطرة خطرت على البال عرضاً على نحو ما قلت ، فالمهم أن أبادر الى إشارات تتصل بالجاحظ لا بأس باثباتها في هذا المقام ، فقد ذكر الأستاذ « بلات » أن الجاحظ وقف أمام معتقدات كثيرة لا يقول بها القرآن موقف الشك لأن هذه المعتقدات يعارضها العقل وهذا الشك الذي أدخله الجاحظ على أدب العرب لو أُدخل على أُمةٍ أقل تمسكاً بتقاليدها لأمكن أن يكون عاملاً من أعظم عوامل تفتيح العقول وتخميرها .

والحقيقة التي استنبطتها من دراستي لكتب الجاحظ أنه لم يدخل الشك على الأدب وحدَه وإنما أدخله على أمور الفكر والعقل ، فالجاحظ لجأ في الاهتداء الى الحقيقة الى الحواس ثم تبيَّن له أن الحواس تخطئ فعمد الى الشك ، ولكن شكه كان سبيلاً الى اليقين ومثله في ذلك مثل « باكون » و « ديكارت » ، فطريقة « باكون » كانت مبنية على الحواس وطريقة « ديكارت » كانت مبنية على العقل ، ولم يكتف الجاحظ بطريقة العقل وحدها فقد جرَّب بنفسه على نحو ما يفعله علماء الحيوان والنبات وتجاربه مستفيضة في كتاب الحيوان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد جاء الوقت الذي يجب علينا فيه أن ندخل الجاحظ في جملة العلماء كما أدخلناه في جملة الأدباء ، فبعض المستشرقين لا يزالون يرون في الجاحظ اماماً من أئمة الأدب وهم يكادون لا يعترفون له بأثر في العلم .

لقد أنصفه الأستاذ « بلات » كل الانصاف لمّا قال إن هذا الرجل لم يعرفه الناس حق المعرفة فانه يمثّل الفكر البشري في فترة من الفترات على الرغم من اتهامه من بعض الوجوه باقتباسه عن اليونان وبقلة ابتكاراته .

ماذا يريدون بقلة ابتكارات الجاحظ ؟ أفلا يكفي صاحب هذا العقل العظيم أن يجرّب ما جرّب وأن يهتدي في نتائج تجاربه الى أمور كثيرة تتصل بالحيوان أو بالنبات أو بالانسان دون أن يجمد على ما اقتبسه عن اليونان أو عن غيرهم من الأمم . إلاّ ان العصر الذي عاش فيه الجاحظ يختلف عن العصر الذي نعيش فيه فلا يمكننا أن نطالبه بابتكارات تشبه ابتكارات علماء هذه الأيام وحسبه انه سبق « باكون » و « ديكارت » الى طريقتيهما ولكنه لم يتوسع في هاتين الطريقتين توسّع هذين الفيلسوفين الكبيرين ، إلا أن فضله بالنسبة إلى عصره ليس بقليل .

وإنّا لنشكر الأستاذ « بلات » الشكر كله من أجل اعترافه بأن الجاحظ يمثل الفكر البشري في زمن من الأزمان فقد أعطاه حقّه وجعله في المنزلة التي يجب أن يكون فيها وهي منزلة رجال الفكر البشري ، لا الفكر العربي وحده .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net